وظيفة الزاوية خلال الفترة الاستعمارية
(زاوية الهامل بولاية المسيلة مثالا)

أ/كشيدة بلال
جامعة المسيلة / الجزائر
أ/ نش عزوز
جامعة غرداية/ الجزائر

* **ملخّـــص :**

تعتبر الزوايا ظاهرة اجتماعية جديرة بالاهتمام من حيث ثبوتها عبر الزمان والمكان، فقد كانت من المواضيع الملفتة للانتباه منذ بداية ظهورها. فكثرتها وامتدادها وانتشارها في المدن والأرياف والجبال والصحاري الواسعة، وإقبال الناس عليها لأخذ العلم من مشايخها، كل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانتها في المجتمع.

وتمثل زاوية الهامل القاسمية التي أسسها الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي **(1863م)** واحدة من الزوايا الشهيرة في القطر الجزائري ومثال لكثير من الزوايا الجزائرية التي عملت جاهدة في سبيل الحفاظ على مقومات الشعب الجزائري، تتداخل فيها كل الأبعاد الروحية الدينية العلمية الثقافية والاجتماعية، أثرت في مسار ثقافة شعب عانى من ويلات التخريب والتدمير والضياع وشكلت همزة وصل بين الحاضر والماضي كما تعتبر من أصدق الشواهد المادية على المقاومة الثقافية .

* **The summary :**

The angles is a social phenomenon worthy of attention in terms of proven through time and place, it was one of the topics is interesting since the beginning of its appearance. Increased spreading spread in the cities and the Countryside Mountains and deserts, and people's demand for it to take the science of its scientists; all this proves its place in the community.

The angle of the EL HEMEL EL QUASIMIYA founded by Sheikh Mohammad bin Abi al-Qasem Al-hameli (1863m) is one of the famous corners in the Algerian country for example of many corners of Algerian has worked hard to maintain the viability of the Algerian people, where all the dimensions of spiritual and religious scientific, cultural, social, have affected the course of the culture of people who suffered from the scourge of sabotage and destruction and loss and formed liaison between the present and the past, is also considered one of the most tangible evidence on the cultural resistance.

* **المقدمة :**

تعتبر الزاوية من أهم الظواهر التي ميزت المجتمع في العالم الإسلامي بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة فجُلا لمعطيات التاريخية تبين أنها حتى نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م كانت قوة بشرية واقتصادية جعلت منها أشبه بالأحزاب السياسية المنظمة،كما كانت تجمع الأعطيات وتقبض الزيارات والهدايا، مماجعلها إلى حد ما تمثل دولة داخل دولة .[1]

ظهرت الزاوية بدايةً في المشرق العربي على شكل بيوت كانت ملحقة بالمساجد يتردد عليها العباد والزهاد للانزواء والخلوة فيها، ثم تطورت وظهرت على شكل أبنية على أطراف المدن كمصليات صغيرة بدون محراب لإقامة الصلوات أما في المغرب العربي فقدعرفت الزاوية تطورا بداية من القرن 13 بحيث أنشئت الزوايا بهدف تنشيط الحركة العلمية داخل المدن وخارجها وعملت على تمسك شعوب المنطقة بدينها مما ساعد على تصديها للغزاة على مر العصور بدءًا بالبرتغاليين ثم الإسبان ومن بعدهم الفرنسيين والايطاليين وكان جل نشاطها في فترات الحرب هو تعبئة أتباعها ومريديها ضد الغزات أمافي فترات السلم فكان هدفها القيام بآداء رسالتها الدينية الحضارية التعليمية والتربوية[2].

أما الجزائر فقد عرف تاريخها زوايا كان لها دور كبير في نشر الوعي الديني والثقافي بين أوساط السكان وساهمت أيضا بدور إيجابي في تحرير البلاد من السيطرة الاستعمارية والحفاظ على الهوية الوطنية ومقومات الشخصية الجزائرية في مقابل سياسة الفرنسة والتجهيل[3]. ففي الجزائر تنتشر هذه الزوايا بشكل واسع عبر أنحاء الوطن إذ بلغ عددها حوالي 349 زاوية في القرن 19م[4].

وتعتبر زاوية الهامل القاسمية* التي أسسها الشيخ محمد بن أبي القاسم* الهاملي واحدة من الزوايا الشهيرة في القطر الجزائري ومثال لكثير من الزوايا الجزائرية التي عملت جاهدة في سبيل الحفاظ على مقومات الشعب الجزائري، تتداخل فيها كل الأبعاد الروحية الدينية العلمية الثقافية والاجتماعية، أثرت في مسار ثقافة شعب عانى من ويلات التخريب والتدمير والضياع وشكلت همزة وصل بين الحاضر والماضي، كما تعتبر من أصدق الشواهد المادية على المقاومة الثقافية[5].وقد تحدث عنها الباحث الفرنسي "jacques berque " بقوله: " إن تاريخ زاوية الهامل يهم تاريخ المغرب بأسره، من حيث المجهود الذي بذلته بكل عزم في زمن الإستعمار ،وذلك باستنهاض القيم الروحية والاجتماعية."[6]

1. إشكالية الدراسة:

لمعالجة هذا الموضوع ومقاربته أكاديميا نطرح الإشكالية التالية:

☒ **هل كان لزاوية الهامل تأثير في الواقع الثقافي والاجتماعي أثناء الفترة الاستعمارية ؟ أم أنها كانت عبارة عن مؤسسة دينية وظيفتها نشر التعاليم الإسلامية؟**

وضمن هذه الإشكالية الرئيسية نطرح تساؤلين فرعيين هما:

- ✓ ما الدور الدي لعبته زاوية الهامل في المجال الثقافي ؟
- ✓ كيف أثرت زاوية الهامل وتأثرت في المجال الاجتماعي؟

تحديد مفاهيم ومصطلحات الدراسة :

اولا: الزاوية :

لغة: كلمة زاوية مشتقة من الفعل انزوى، أي اتخذ ركنا من أركان المسجد للتعبد والاعتكاف[7] .ولفظ زاوية مشتق من زوى، ويقصد به زوى، زويا، زيا الشئ، أي جمع الشئ وقبضه[8]، كما تعني الركن.

اصطلاحا: نجد تعريفا للزاوية في دائرة المعارف الاسلامية:" فيطلق هذا اللفظ في شمال إفريقيا على مجموعة من الابنية ذات طابع ديني: غرفة للصلاة، ضريح لأحد المرابطين أو ولي من الأشراف تعلوه قبة، غرفة قصرت على تلاوة القرآن، مدرسة لتحفيظ القرآن غرفة مخصصة

لضيوف الزاوية والحجاج والمسافرين، وغرفة للطلبة، ويلحق بالزاوية عادة مقبرة تشمل قبور أولئك الذين أوصوا في حياتهم أن يدفنوا بها"[9].

أما "ابن مرزوق الخطيب"781ه=1319م(*) فيعرف الزاوية بقوله :"هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين"[10]. ويبدوا أن هذا التعريف ليس دقيقا كونه لا يشمل كل الزوايا بل يقتصر على الزوايا التي أقامها المرينيون داخل المدن الكبرى، كما أن وظيفة الزاوية لم تقتصر على الإيواء والإطعام فقط بل تعدته إلى وظائف اخرى كالتدريس واصلاح ذات البين.

ويطلق عليها في الشرق خانقاه وهو لفظ أعجمي يجمع على خاناقاهات أو خاناقاوات أو خوانق، إلا أن الخانقاه تختلف عن الزاوية في كونها مخصصة لنخبة من الصوفية ولا تبنى لشيخ صوفي بعينه، وعادة ما تحمل اسم مؤسسها الأول الذي قد يكون تاجرا أو سلطانا أو أميرا، والقائمون على الخوانق هم موظفون يتقاضون أجورهم من الوقف[11].فالعاملون في الخوانق هم عبارة عن أجراء يتقاضون أموالهم دون أن يكونوا مسخرين لخدمتها روحياً، وهذا على عكس ما نجده في الزاويا.

ثانيا:الاستعمار :

هو ظاهرة تهدف إلى سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة وبسط نفوذها من أجل استغلال خيراتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافيةوفرض ثقافة الاستعمار على أنها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المستعمرة إلى مرحلة الحضارة.

1. <u>الموقع الجغرافي لزاوية الهامل:</u>

إن الزاوية كمكان تعني التموقع بعيداً عن الاختلالات والاضطرابات الحاصلة في العالم الدنيوي، وبالمقابل فهي تشكل زاوية لرؤية العالم، وهذا ما أبرزته بعض المقاربات الأنثروبولوجية التي أسست منظومة معرفية حول ظاهرة الزوايا في المجتمعات العربية والاسلامية في طورها التقليدي، انطلاقا من مفاهيم المكان والفضاء ومحمولاتها الثقافية والتاريخية والاجتماعية[12].

تشكل واحة بوسعادة جزءا من الهضاب العليا الجزائرية، وتقع في نقطة التقاء الاحداثيات الجغرافية (11-4) على خط الطول الشرقي، و(13-35) على خط العرض الشمالي، ويبلغ ارتفاعها على سطح البحر

حوالي 560م، وتعتبر المنطقة ملتقا للطرق يربط البحر المتوسط بالصحراء، حيث تربط منطقة الزيبان بالجزائر العاصمة، وتتصل من الناحية الشمالية بمنخفض الحضنة الذي يشكل وسط شط الحضنة، أما من الناحية الجنوبية فتغطيها الكثبان الرملية[13].

أما بالنسبة لقرية الهامل فتقع بالجنوب الغربي من مدينة بوسعادة وتبعد عنها بحوالي 13كلم على الطريق الوطني رقم 89 الرابط بين دائرة بوسعادة ودائرة عين الملح وهي تبعد بحوالي 250 كلم من ناحية الجنوب عن الجزائر العاصمة على القمم الأخيرة لجبال أولاد نايل في السفحالشرقي لجبل عمران تتوسط السلسلة المعروفة بجبل أمساعد وبالتالي تتوسط السلسلةالجبلية للأطلس الصحراوي الممتد من الشمال الشرقي للجزائر انطلاقا من الأراضي التونسية إلى غاية الجنوب الغربي متوغلة داخل التراب المغربي.

2. أصل تسمية القرية بالهامل :

يطلق مصطلح الهامل في العامية الجزائرية بمعنى الضال، الذي ظل الطريق في سيره أو الذي يبحث على من يرشده في دينه، وقد يكون المعنى الثاني الأقرب للصواب ذلك أن أول مسجد أسس بها هو مسجد التوتة في القرن السادس الهجري وقد جعل هذا المسجد لهداية الناس بالوعظ والإرشاد[14].كما قد يكون أصل التسمية يتعلق بالطبيعة التضاريسية للمنطقة كونها تقع في منطقة بعيدة مخفية ومهملة بين الجبال ولو لم تكن مركزا علميا لما عرفت.

إلا أن "ابن بكار" في كتابه "مجموع الحسب والنسب" ذكر أن أصل التسمية يرجع إلى الشيخ محمد بن أبي القاسم مؤسس الزاوية، وأن تسمية الهامل كانت للزاوية قبل البلدة وذلك في قوله:" أسس الغوث الشيخ سيدي محمد بن ابي القاسم تلك الزاوية وسماها زاوية الهامل قبل تسمية تلك البلد بالهامل."[15].

وفي المكان المسمى بالهامل لا يوجد من الآثار ما يدل على أن المنطقة شهدت حضارات غابرة، فالمكان طبيعيا ضيق المساحة ولا يشجع على العيش فيه، ولعل الذي اختار هذا المكان كموطن له ولمن يأتون بعده قد تعمد ذلك، فكان المكان بذلك محدودا لا يتسع إلى لعدد قليل من القاطنة[16].

وقد أورد الحاج بونيف وصفا دقيقا لمنطقة الهامل بقوله" لا أدري إن كان اختيار الشيخ سيدي أحمد عبد الرحيم للمكان عن استراتيجية رآها ومن معه، أم هي محض صدفة، ولكن الدلائل كلها تبين أن ذلك كان على حسن تفكير وبعد نظر فالمكان مرتفع ومناسب لمراقبة ما حوله، ومشرف على كل النقاط المحيطة به، فعلى جنباته البساتين والعيون، ومن حوله الجبال والأراضي المستغلة للحراثة والزرع والرعي وغيرها من الأمور المعيشية التي تتطلبها حياتهم البسيطة آنذاك."[17]

ولا شك أن الظروف كانت مساعدة على اختيار هذه المنطقة دون غيرها من المناطق، فقرية الهامل تقع على الطريق الرابط بين مدن الشمال والجنوب مما جعلها محطة عبور للقوافل التجارية، ناهيك عما توفره هذه الميزة من عوائد اقتصادية للمنطقة، كما كانت تاريخيا محطة عبور للحجاج القادمين من المغرب الأقصى باتجاه البقاع المقدسة.

فحسب الروايات الشفهية المتداولة في المنطقة أن المكان المسمى بالهامل قد أقام به أحد أجداد محمد بن أبي القاسم وهو الشيخ عبد الرحيم بن أيوب والذي أسس به مسجدا في ذلك الوقت، وبالتالي فقد يكون للبعد التاريخي الديني عاملا في اختيار مكان الأجداد كموضع لتأسيس هذه الزاوية وهذا ما عبر عنه المؤرخ جاك بيرك(*) بقوله: " إن تأسيس زاوية الهامل يعتبر إعادة بعث للزاوية السابقة التي أسسها في الماضي أجداد محمد بن أبي القاسم"[18].

أما بالنسبة لموضع الزاوية بالنسبة للقرية فيبدوا أنه أختير بعناية فائقة وقد عبر عن ذلك محمد علي دبوز بقوله:

"وفي ناحية تجمع بين خصائص الصحراء وميزات الشمال، ففيها من الصحراء صفاء الجو، والطقس اللطيف في الشتاء، وطهارة البيئة"[19].وهذا ما أكدته الصحفية ايلزابيت ابرهارد بقولها" هذا المكان له طابع متميز خاص به فلا هو يشبه الصحراء ولا البادية المعتادة للهضاب العليا"[20]، فكانت هذه العوامل المناخية جاذبة للطلبة القادمين من الشمال ومساعدة على استقرارهم بالمنطقة.

3. الوظائف الثقافية والاجتماعية للزوايا في الجزائر:

أخذت الزاوية أهميتها من تعدد وتنوع وظائفها المختلفة ذات الابعاد الوطنية فالدور الذي أخذته على عاتقها في مختلف الميادين جعلها محط اهتمام من قبل المستعمر الذي حاول في كثير من الأحيان شل حركتها، كونها ساهمت في التصدي للتيار الاستعماري وشاركت في

مسيرة النهضة الوطنية التي كان من دعائمها الطلبة والعلماء والفقهاء، فاستطاعت بذلك أن تقف كعقبة أمام الاستعمار وسياساته الممثلة في تنصير المجتمع الجزائري وتجنيسه وفرنسته، ولعل أهم دور قامت به يتمثل في المحافظة على القرآن الكريم وتحفيظه كتابة ورسما وتلاوة وتجويدا[21].

لقد استطاعت الزوايا أن تحافظ على الشخصية الوطنية طوال الفترة الاستعمارية، ويظهر الأثر الإيجابي للزوايا في المعركة الحضارية التي خاضتها ضد الاحتلال الفرنسي، وبالرغم مما تعرضت له الزوايا في الجزائر من تدمير وتخريب ومصادرة إلا أنها أخذت على عاتقها مهمة التوجيه والإعداد لانتفاضات وثورات ناهيك عن دورها العلمي والديني[22].

وقد أشارت الدراسات الكولونيالة التي تمت في مرحلة الاحتلال إلى الوجود المتميز لحركة الزوايا وتركيبتها، وأشادت بوظائفها المتنوعة، كالنقيب "Neveu" الذي أجرى دراسة هامة سنة 1945م حول الاتجاهات الدينية وتنظيماتها، حيث كشف عن تعددية وتشعب وظائف الزاويا في الجزائر، فوصفت بكونها مؤسسة ليس لها مثيل في الاوساط الغربية. "فهي عبارة عن مصلى، وفي نفس الوقت تابعة للعائلة التي قامت بتأسيسها، حيث يأتي المريدون المرتبطون بالعائلة للزيارة في أوقات مخصصة، وهي أيضا مسجد يجتمع فيه مسلمو القبائل المجاورة لأداء الصلاة جماعيا، كما أنها مدرسة تدرس مختلف العلوم القرآنية، الكتابة، الحساب، الجغرافيا، التاريخ، الكيمياء، السحر، الفلسفة والتوحيد للأطفال طول السنة وللطلبة في مواسم معينة، والعلماء في أوقات خاصة فهم يجتمعون لأجل تعلم ما يجهلونه أو لإثارة ما يجهلونه أو لإثارة نقاشات حول مسائل قانونية فقهية، تاريخية، وعقائدية."[23]

1.3 الوظائف الثقافية لزاوية الهامل بالمسيلة :

ساهمت زاوية الهامل القاسمية في بعث حركة علمية فكرية واسعة شملت مناطق عدة من الوطن وبلغ تأثيرها الى خارجه، عن طريق البعثات والمراسلات والعلاقات مع علماء العصر وجعلت من تلك القرية الهادئة الوادعة -قرية الهامل- مركزا هاما من مراكز التعليم في القطر الجزائري، ينافس بمستواه كبريات الحواظر العلمية المعروفة في العالم الاسلامي، كالأزهر الشريف بالقاهرة والزيتونة بتونس والقيروان بفاس.

حيث اولت الزاوية عناية خاصة بالتعليم وهذا ما تبناه شيوخ الزاوية الذين تعاقبوا على مشيختها، وذلك من خلال توفير مستوى عال من التعليم ما أعطى للزاوية مكانة مرموقة بين مختلف الزوايا المنتشرة في

القطر الجزائري، ويوجد نوعان من التعليم داخل الزاوية الاول تعليم موجه لكافة فئات المجتمع، فزاوية الهامل في الاصل مثلها مثل غيرها من زوايا العلم والقران الكريم، مؤسسة دينة حرة هدفها الاساسي المحافظة على الدين الاسلامي ونشر تعاليمه بين فئات الامة على مختلف مستوياتهم الفكرية ضمن هذا المنطلق لم تكن زاوية الهامل قبلة للعلماء والاساتذة وطالبي العلم من التلاميذ فحسب بل كانت مقصدا لعامة الناس.

اما النوع الثاني من التعليم فتعليم خاص موجه لفئة معينة وهو قائم على مناهج علمية مضبوطة، ويجتاز الطالب من خلاله مراحل محددة ويخضع اثناء عملية التدريس لنظام مسطر لا يحيد عنه، وقد حرصت زاوية الهامل على القيام بهذا النوع من التعليم وسخرت له كل ما تملك من طاقات، وكان مختلف الشيوخ الدين تعاقبوا على ادارة شؤنها حريصين على حسن تنظيمه واستمراريته فلم تنقطع الزاوية عن القيام به مند تأسيسها.

حيث قسم التعليم النظامي في الزاوية الى قسمين اساسيين وهما:

أولا: قسم تحفيظ القران الكريم :

هو عبارة عن قسم مخصص لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القران الكريم, وتعتبر هدة المرحلة من التعليم اساسية وإجبارية لمن يريد الارتقاء الى قسم علوم الدين ويبتدأ الطالب في هذه المرحلة بإتقان الحروف الهجائية نطقا ورسما عن طريق التلقين، فيتم حفظها نطقا أولا بوصف الحروف بلحن على شكل أهازيج كترديد الطالب: " الالف لاشان عليه والبا تنقط من تحت..."،ثم يحفظها رسما عن طريق الكتابة في اللوح باستعمال القلم والحبر وبعد الانتهاء من الحفظ يمحى اللوح بالصلصال[24].

أما الخطوة الثانية فينتقل اليها الطالب بعد تمكنه من قراءة الكلمات و الجمل فينتقل بذلك مباشرة الى حفظ صغار السور من القرآن صعودا إلى نصفه، ثم ينتقل الى سورة البقرة ويبدأ بالحفظ نزولا إلى غاية اتمامه، ويعتبر الحزب الراتب* من أهم الوسائل الناجحة في الحفظ، وبغية تحضير الطالب تحضيرا جيدا لدراسة العلوم الدينية كان الطالب يؤمر مع كتابة كل ثمن في اللوحة ارفاقه بأبيات من المتون العلمية كمتن ابن عاشر والأجرومية وجوهرة التوحيد وألفية بن مالك ومختصر خليل، فلا يختم الطالب القرآن حتى يكون قد حفظ بعض المتون المشهورة ليلتحق بعدها مباشرة إلى حلقات العلم لفهم وادراك ما حفظه.

إلا ان هذه الطريقة تبقى ناجعة لفئات معينة من الطلبة ونقصد بذلك الحفاظ منهم فحفظ المتون يستدعي فهمها أولا، كما أن أسلوب التلقين المباشر دون استيعاب ما تم حفظه يدفع بالطالب الى النسيان.

ثانيا: قسم علوم الدين :

هو القسم المخصص لتدريس مختلف علوم الدين وفنون اللغة العربية الى جانب العلوم الاخرى التي لا يدرس منها عادة إلا بالقدر الذي يخدم علوم الدين، كالفلك والحساب والتاريخ والمنطق، وتكون هذه المرحلة مكملة للمرحلة الاولى فبعد ان يتم الطالب حفظ القرآن يشرع مباشرة في دراسة العلوم الدينية كالفقه والحديث والعقيدة والسيرة النبوية وغيرها، بالاعتماد على مجموعة من الكتب يتدرج في دراستها شرحا وتحليلا.

ومما يشاع كثيرا أن الزوايا في الجزائر على غرار زاوية الهامل قد عملت على تدريس القرآن فقط إلا أن المتمعن في الكتب التي كانت تدرس تتضح له الرؤية فيما يتعلق ببرامج التعليم فشيوخ الزاوية ومدرسوها لم يكتفوا بتدريس العلوم الدينية فحسب كعلم الحديث والفقه وأصوله والعقيدة والتوحيد، بل شمل ذلك أيضا كتب المنطق والفلك والحساب وغيرها من العلوم باعتبارها ضرورية في المسار التعلمي للطالب بالزاوية.

هذا ما أكدّته الباحثة الأمريكية "جولياكلنسيسميث" في اطار حديثها عن الدروس التي يتلقاها الطلبة في الزاوية وذلك فيقولها : " ...بالإضافة إلى الدروس المعروفة والمتعلقة بالقرآن كالحديث والفقه واللغة العربية والتصوف، فقد برع الطلبة في الكيمياء والرياضيات وعلوم النجوم والفلك..."[25] .

إن هذا الانفتاح الحاصل على مستوى الدروس المقدمة ولو كان بدرجة أقل بالنسبة لغير العلوم الدينية فإنه يبين كفاءة وبعد نظر شيوخ الزاوية ومدرسيها، فالطالب لا يستطيع فهم ما حوله دون دراسة هذه العلوم فعلم الفرائض مثلا لا يمكن للدراس فهمه إلا إذا كان متقننا لعلم الحساب، فلاشك فيكون العلوم الدينية ترتبط ارتباط وثيقا بالعلوم التجريدية.

2.3 الوظيفة الاجتماعية لزاوية الهامل بالمسيلة :

اتجهت السياسة الفرنسية إلى احداث تغيير في البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الجزائري، قصد تدمير روح المقاومة التي يتمتع بها،

وهذا لا يتم حسب منظور هذه السلطات دون القضاء على كل ما له علاقة مباشرة بمعتقدات الأهالي وأنظمتهم الحضارية التي توارثوها وبهذه الطريقة تستكمل عملية الهدم والتدمير لجميع مقومات المجتمع.

وقد بنيت سياسة الاحتلال الفرنسي في المجال الاجتماعي على سلسلة من الإجراءات المتعاقبة تتمثل في إيجاد مجتمع جزائري منسجم مع الغايات التي ينشدها المحتل، بحيث يكون منفصلا عن أصوله الثقافية والدينية والاجتماعية مندمجا في المجتمع الفرنسي دون أن يرقى في نظر المستعمر إلى نظام الحكم والتسوية بينهما، وفي ظل غياب سلطة فعلية تقوم بتسيير المجتمع كانت الزوايا هي الملاذ الوحيد للكثير من الفئات الاجتماعية.

تفهم الوظيفة الاجتماعية للزواية انطلاقا من تصور راسخ فحواه أن الشيخ يأخذ على عاتقه مسؤولية تلبية حاجات الجماعة، وهذا يعتبر من مقتضيات الولاية قبل كل شئ، ولا يتأتى ذلك إلا اذا تميز بمجموعة من الصفات أهمها حماية الناس وحل مشاكلهم، وبهذا تكون العلاقة التي تربط الولي أو شيخ الزاوية بالمجتمع هي علاقة تبادل للعطاء، الذي يتلخص في الاخلاص والاعتراف بولاية الشيخ مقابل قضاء الحاجات وحل المشكلات[26].

من هنا فقد برزت مكانة زاوية الهامل كمؤسسة اجتماعية قدمت للمجتمع خدمات جليلة، من علم وتربية وإيواء وتأهيل مهني واجتماعي ورعاية نفسية فقد كانت مفتوحة لكل فئات المجتمع دون استثناء، وملاذا آمنا في أوقات الكوارث والأزمات الاجتماعية، فالحروب التي حدثت في الجزائر طوال فترة الاحتلال أدت إلى تشريد العائلات وتدمير ملكيتهم الفردية، وزيادة عدد الأيتام، فوجد هؤلاء في الزاوية الملجأ الوحيد لمعاناتهم، اقترنت وظيفة زاوية الهامل في المجال الاجتماعي بالإطعام، ولا شك في مال هذه الوظيفة من أهمية بالغة في مجتمع عانى كثيرا من نقص في الإنتاج فترات الجدب والقحط والمجاعة[27].

وقد عبر الباحث الفرنسي جاك بيرك عن الوظائف التي تقوم بها زاوية الهامل محل دراستنا في رسالة إلى الشيخ "مصطفى قاسمي الحسني"(*) وذلك في قوله:" إن تاريخ زاوية الهامل يهم تاريخ المغرب بأسره، من حيث المجهود الذي بذلته زمن الاستعمار وذلك باستنهاض القيم الروحية والاجتماعية التي تقوم مقام ملجأ للناس"[28].

من هنا فقد استطاعت زاوية الهامل أن تقوم مقام السلطة الفعلية في وقت غابت فيه السلطة السياسية فكان القائمون عليها يتنقلون إلى اماكن النزاعات لحلها، وفي معظم الحالات كانت الخلافات تحل في الزاوية نفسها، وخصوصا ما تعلق بالمشاكل العائلية كالإصلاح بين الأزواج، وفي كثير من الأحيان كانت عقود الزواج تقام داخل الزاوية وتتكفل الزاوية بنفقات الزواج[29].

كان الشيخ محمد ابن أبي القاسم يفصل في الخلافات القائمة فيذهب كل طرف وهو راض بحكم الشيخ، وبعد اصدار الحكم تقرأ "سورة الفاتحة" تعبيرا عن موافقة المتنازعين على الحكم الصادر، وكانت هذه الاحكام التي يطلقها الشيخ ملزمة للجميع وتحضى باحترام كامل فلا تناقش أو تراجع، حتى ان آخر تنقلات الشيخ قبل وفاته كانت من أجل فك خصومة بين أعراش متنازعة فتم رفع الخلاف وبعدها توفي[30].من هنا تكون زاوية الهامل قد استطاعت أن تعزل فئات من المجتمع ولو نسبيا عن الادارة الاستعمارية، وبالمقابل فرضت نفسها كفاعل ضروري لا غنى عنه في المجتمع.

وتقام في الزاوية مجموعة من الأعياد والاحتفالات الدورية التي كانت تساهم في تكوين علاقات اجتماعية متينة جدا، وتمكن من تخطي تلك الحواجز الاجتماعية وحتى السياسية، فتتوثق بذلك العلاقات العائلية وتتبادل الأخبار الودية، وتبرم العهود والعقود والصفقات، وبهذا يحدث الحراك الاجتماعي المحلي[31].

كما تحيي الزاوية الاحتفالات الخاصة بموسم الحج وتسهر على توفير المال لبعض الحجاج، ويبرز أحد التقارير الفرنسية هذه الاحتفالات:"في مختلف المناسبات والأعياد الدينية، تأتي أيضا أعداد كبيرة من الزوار المريدين من بعيد لحضور الاحتفالات بعيد الفطر وعيد الأضحى، عاشوراء، والمولد النبوي الذي يتميز عن غيره من المناسبات حيث توزع فيه الصدقات والأموال على الفقراء"[32].

* **الخاتمة :**

وما يمكن أن نخلص إليه من خلال ذكرنا لبعض الوظائف الثقافية والاجتماعية لزاوية الهامل، يكمن في كون الزاوية استطاعت أن تخفف من معاناة الشعب الجزائري وذلك من خلال التكفل بالفقراء واليتامى والمساكين، كما أنها حافظت على تماسك ووحدة المجتمع الجزائري، وتمكنت من خلال نشاطها من تنظيم العلاقات بين مختلف شرائح المجتمع

فكانت تستقبل الأموال من الأغنياء وتصرفها على الفقراء، ومثلت قلعة حصينة في وجه المشاريع الاندماجية التي سعى المستعمر الفرنسي إلى تحقيقها.

من هنا فإن زاوية الهامل عبارة عن مؤسسة متعددة الاختصاصات تمكنت من ان تكون بديلا يملأ الفراغ الذي أحدثه المستعمر من خلال الوظائف المتعددة التي أصبحت منوطة بها، فاستطاعت بذلك أن تحافظ على البنية الاجتماعية للجزائريين في وقت لم تكن فيه أي مؤسسة أخرى يمكن لها أن تقوم بهذا الدور، فهي المسجد والمدرسة والمنزل والمكان الذي يمكن للفرد أن يجد فيه راحته دون مقابل.

- **التهميش :**

(1) التليلي العجيلي: النخبة والسلطة في العالم العربي خلال العصر الحديث والمعاصر ،الجامعة التونسية،مركز الدراسات والأبحاث الاقتصاديةوالاجتماعية،العدد 05،تونس 1992،ص195.

(2) عبد القادر الشطي: السلفية الوفية مذهب أهل الحق الصوفية، دارهومة، الجزائر،2002 ص310.

(3) كفاح جرار: زوايا ثائرة من اللوحة إلى البندقية، منشورات الأنيس للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر ،2012 ،ص17.

(4) محمد نسيب :زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، مطبعة النخلة، الجزائر،1989،ص31.

* انظر الملحق رقم:01.

* انظر الملحق رقم: 02.

(5) عبد المنعم القاسمي الحسني: زاوية الهامل مسيرة قرن من العطاء والجهاد (1862-1962) ط2، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر،2013،ص15.

(6) مراسلة "jacques berque" إلى الشيخ مصطفى قاسمي الحسني، زاوية الهامل، بتاريخ 17 سبتمبر1965، من وثائق المكتبة القاسمية.

(7) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي، الديني والثقافي والإجتماعي، ج4، ط1 مكتبة النهضة المصرية،1967،ص423-424.

(8) بن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 452.

(9) هوتسما وآخرون: موسوعة دائرة المعارف الاسلامية، ترجمة أبراهيم زكي وأخرون، دار الشعب القاهرة، (د.ت)، مادة زاوية، مقال ليفي بروفنسال، م10، ص 332.

(*) ابن مرزوق الخطيب:(ت 781ه) محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التلمساني المالكي العجيسي، شمس الدين أبو عبد الله، عالم فقيه أصولي وأديب. ينظر الإحاطة بأخبار غرناطة : أبو عبد الله محمد السلماني المعروف بلسان الدين بن الخطيب، تحقيق عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج3، 1977، ص 103.

(10) ابن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا بيغيرا تقديم: محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1381هـ-1981م، ص413.

(11) محمد بن الطيب: إسلام المتصوفة، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2007، ص154.

(12) غرس الله عبد الحفيظ: الزاوية فضاء للتنشئة الاجتماعية مقاربة سوسيولوجية، **مجلة المواقف**، العدد الأول، ديسمبر 2007 م، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي معسكر، ص19.

(13) Youssef Nacib ; L'oasis de Bou Saâda, edition ziryab, 2013.p39.

(14) محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة،ج1، عالم المعرفة، ط1، الجزائر،2012 ص 63.

(15) ابن بكار:مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961، ص157.

(16) الحاج بونيف: صفحات من تاريخ الهامل، دار الخلدونية،(د.ط)، الجزائر، 2012، ص21.

(17) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(*) جاك بيرك: مستشرق فرنسي، تبنى الدفاع عن القضايا العربية، توفي سنة1995.

(18) Jaque berque : le Maghreb entre deux guerres, édition du seuil, paris, 1962,p142.

(19) محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 62.

(20) Isabelle eberhardt: Note de route ,Librairie Chorpentur et fasquelle,paris,1908 p290.

(21) نجيب بن خيرة: ابحاث اسلامية في الفكر والتاريخ، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2010 ص36-37.

(22) محمد العربي حرز الله: منطقة الزاب مائة عام من المقاومة (1830-1930)، دارالسبيل (د.ط)، 2009، ص339.

(23) غرس الله عبد الحفيظ، المرجع السابق، ص22.

(24) محمد فؤاد القاسمي: التعليم في زاوية الهامل قبل استقلال الجزائر، جامعة صوفيا، اليابان 2012، ص 02.

* الحزب الراتب: هو القراءة الجماعية للقرآن تكون في شكل حلقة تنعقد كل يوم على مدار العام صباحا ومساءا ، يختم خلالها الطالب القرآن مرتين في الشهر، فتساعده بذلك على استذكار ما نسيه وحفظ مالم يحفظه، ويستفيد من هذه الحلقة فئة المكفوفين الذين لا يجدون من يتفرغ لتدريسهم فيحفظون القرآن عن طريق السماع.

(25) Clancy-Smith, Julia A: Rebel and Saint: Muslim Notables, Populist Protest, Colonial Encounters (Algeria and Tunisia, 1800-1904). Berkeley: University of California Press, 1994. P223.

(26) محمد بن الطيب: المرجع السابق، ص 165.

(27) المرجع نفسه: ص 169.

(*)الشيخ مصطفى بن محمد بن الحاج محمد بن ابي القاسم الشريف الحسني (1897-1970) شرع بالتدريس في الزاوية سنة 1916م وذلك في ولاية عمه الشيخ أبي القاسم، وفي سنة 1928م تولى مشيخة الزاوية (أنظر عواطف قاسمي الحسني: نفحات هاملية، بين الرواية والحقيقة، وبين الحقيقة والوثيقة، دار الخليل القاسمي، 2014، ص 93.)

(28) رسالة جاك بيرك إلى الشيخ مصطفى قاسمي الحسني، شيخ زاوية الهامل، بتاريخ 17 سبتمبر1965، من وثائق المكتبة القاسمية.

(29) بثينة سلطاني الحمراوي: البعد الإصلاحي في التراث الصوفي، **مجلة الحياة الثقافية**، منشورات وزارة الثقافة، تونس، العدد239، 2013، ص11.

(30) عبد المنعم القاسمي: المرجع السابق، ص 320.

(31) محمد بن الطيب، المرجع السابق، ص169.
(32) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989م، ص87.

الملحق رقم01 : صورة لزاوية الهامل، من وثائق زاوية الهامل

الملحق رقم 02 : صورة الشيخ محمد بن أبي القاسم، وثائق زاوية الهامل

* **قائمة المصادر والمراجع :**

- **باللغة العربية:**

أ-**الوثائق الأرشيفية**:

مراسلة "jacques berque" إلى الشيخ مصطفى قاسمي الحسني، زاوية الهامل، بتاريخ 17 سبتمبر1965، وثائق المكتبة القاسمية.

ب- **الكتب:**

1. ابن بكار: مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961.
2. بن الطيب محمد: إسلام المتصوفة، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2007م.
3. بن خيرة نجيب: ابحاث اسلامية في الفكر والتاريخ، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2010.
4. بونيف الحاج: صفحات من تاريخ الهامل ، دار الخلدونية، (د.ط)، الجزائر، 2012.
5. جرار كفاح: زوايا ثائرة من اللوحة إلى البندقية، منشورات الأنيس ، الجزائر،2012.
6. حرز الله محمد العربي: منطقة الزاب مائة عام من المقاومة (1830-1930)، دار السبيل، (د.ط)، 2009.
7. دبوز محمد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة،ج1،عالم المعرفة،ط1، الجزائر 2012.
8. الشطي عبد القادر: السلفية الوفية، مذهب أهل الحق الصوفية، دار هومة الجزائر،2002.
9. القاسمي الحسني عبد المنعم: زاوية الهامل مسيرة قرن من العطاء والجهاد(1862-1962) ،ط2، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر،2013م.
10. القاسمي محمد فؤاد: التعليم في زاوية الهامل قبل استقلال الجزائر، جامعة صوفيا، اليابان 2012.
11. محمد نسيب : زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، مطبعة النخلة، الجزائر،1989.
12. الميلي مبارك: تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989م.

ت- **المجلات العلمية:**

1. الحمراوي بثينة سلطاني: البعد الإصلاحي في التراث الصوفي، **مجلة الحياة الثقافية** منشورات وزارة الثقافة، تونس، العدد239، 2013.
2. عبد الحفيظ غرس الله: الزاوية فضاء للتنشئة الاجتماعية مقاربة سوسيولوجية، مجلة المواقف، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، العدد الأول، ديسمبر 2007.
3. العجيلي التليلي : النخبة والسلطة في العالم العربي خلال العصر الحديث والمعاصر الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، العدد 05 تونس، 1992.

ث- الرسائل الجامعية:

1. بن القبي عيسى: زاوية الهامل ودورها الثقافي والاجتماعي 1863/1962, مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر, جامعة الجزائر, كلية العلوم الانسانية,1421/1422.

- **باللغة الفرنسية :**

1. Clancy-Smith, Julia A: Rebel and Saint: Muslim Notables, Populist Protest, Colonial Encounters (Algeria and Tunisia, 1800-1904). Berkeley: University of California Press, 1994.
2. Isabelle eberhardt :Note de route ,Librairie Chorpentur et fasquelle, paris,1908.
3. Jaque berque: le Maghreb entre deux guerres, édition du seuil, paris, 1962.
4. Youssef Nacib ; L'oasis de Bou Saâda, edition ziryab, 2013.